

الإيمان الراسخ.. عزم لا يلين



(وَصَرَبَ اللَّيْلُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (التحریم / 11). - امرأة صالحة: يوم الزينة... إنَّه اليوم الذي حدده فرعون لموسى (ع)، يوماً للتحدي في دعواه رسول الله من رب العالمين، وجمع فرعون السحرة، وواعدهم ومذَّاهم بالقرب والنعيم، ولكن الغلبة حتمية للمعجزة الإلهية معجزة العصا التي استطاعت أن تلحق الهزيمة بفرعون، وكان أوَّل المؤمنين أولئك السحرة، انقلاب هز الناس، كما اهتز البيت الفرعوني لهول صدمة أخرى إنَّها زوجة فرعون، وأقرب الناس إليه تكفر به، وتؤمن برب موسى ونبوة موسى، إيماناً لا يزعزعه شك إنَّها آسيا بنت مزاحم، وهي امرأة صالحة، رسخ الإيمان في قلبها فكفرت بالجبت والطاغوت وآمنت بالواحد الأحد، وثبتت وصبرت رغم كل العذاب الذي حلَّ بها، وقد ورد في الرواية عن أبان الأحمر قال سألت أبا عبداً (ع) عن قول الله عزَّ وجلَّ: (وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ) (ص/ 12)، لأي شيء سمِّي ذا الأوتاد؟ قال: لأنَّه كان إذا عذب رجلاً بسطه على الأرض على وجهه ومد يديه ورجليه فأوتدها بأربعة أوتاد في الأرض... [1]، وبهذه الكيفية عذب آسية بنت مزاحم زوجها، وذلك أن آسية لما عاينت المعجزة والعصا من موسى وغلبته على السحرة أسلمت فلما بان لفرعون نهاها فأبت فأوتد فرعون يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس ثمَّ أمر أن تلقى عليها صخرة من جبل عظيمة فلما قرب أجلها قالت: رب ابن لي عندك بيتاً

في الجنة فارتفع لها الحجب فنظرت إلى منزلها في الجنة فست وضحت فرفعها ۞ تعالى إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب. الدروس المستفادة من هذه القصة: - إيمان راسخ وعزم لا يلين؛ هل يمكن للإنسان أن يصل بإيمانه إلى أن يبذل روحه دون أن يتنازل مقدار أنملة عن هذا الإيمان؟ تحكي قصة آسيا بنت مزاحم قصة امرأة دخل الإيمان قلبها وأصبح راسخاً لا يزول فتحملت في سبيل الإيمان أشد أنواع العذاب. وهي لا ترجو في عذابها إلا أن تكون عند ۞ عز وجل في الجنة. إنَّه الحب ۞، وهو حقيقة الإيمان، أما أن يعتقد الشخص بالشئ أو يقتنع به دون أن يدخل إلى قلبه، يؤثر في روحه فإنَّه لن يبذل في سبيله الكثير. وهذا الإيمان الراسخ ينعكس فعلاً في حياة الإنسان، وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق (ع): "لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في ۞، ويبغض أقرب الخلق منه في ۞" [2]. وهذا الإيمان الراسخ هو الذي يجعل الإنسان يختار ما فيه المشقة والعذاب في سبيل إيمانه على ما فيه الدعة والراحة، وقد ورد عن الإمام الباقر (ع): "لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: حتى يكون الموت أحب إليه من الحياة، والفقر أحب إليه من الغنى، والمرض أحب إليه من الصحة. قلنا: ومن يكون كذلك؟! قال: كلكم. ثم قال: أيما أحب إلى أحدكم يموت في حبنا أو يعيش في بغضنا؟ فقلت: نموت و ۞ في حبكم... قال: وكذلك الفقير..". [3]. إن هذا الإنسان الذي يصل إلى مرتبة الإيمان سوف يوفقه ۞ عز وجل لأن يصل إلى درجة أرقى هي الطمأنينة، والطمأنينة هي التي تجعل من هذا المؤمن راسخ الإيمان، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهِ عََلِيمًا ذَكِيمًا) (الفتح/ 4). - شجرة طيبة في بيئة فاسدة: هل يمكن للإنسان أن يبرر كونه على الكفر والضلال بأنَّه قد عاش في بيئة غير مؤمنة، أو أن يبرر عدم التزامه بأحكام ۞ عز وجل بأنَّه عاش في بيئة لا تلتزم بأحكام ۞ عز وجل؟ إنَّ الجواب الصحيح هو بالنفي، إذ أسهل ما يكون على هذا الإنسان أن يخرج من هذه البيئة الفاسدة إذا سمع نداء الحق ودعوة الدين، فهذه امرأة ضعيفة كانت زوجة لفرعون ملك مصر وكانت محاطة بكل نعيم هذه الدنيا وبكل ما تحلم به امرأة في عصرها وزمانها، فأى بيئة فاسدة أشد من بيت فرعون، ولكنها لما رأت الحق بأم عينها خرجت من تلك البيئة الفاسدة وآمنت بالحق مزلزلة كيان تلك البيئة الفاسدة. ولم تبرر لنفسها أنها لن تتمكن من أن تخرج من فرعون أو تعصي فرعون. وهكذا المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان لن يجد لنفسه مبرراً لترك إيمانه والتزامه بأحكام الشرع بمجرد أنَّه يعيش في بيئة فاسدة. ويحكي لنا القرآن الكريم قصة الاختيار هذه بين الحفاظ على الإيمان وبين البيئة الفاسدة، حيث يقول: (قُلْ إِن كَانِ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اقْتَرَبَ فُتْمُوهُمَا وَتَجَارَعَا تَخَشُّونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينَ تَرْضَوْنَهَا
أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ
(التوبة/ 24). تضع هذه الآية الإنسان أمام خيارين، ولا تجد له أي مبرر إلا اختياره بنفسه
لأحد الأمرين:

أ- الآباء، الأبناء الأزواج، الأخوان والعشيرة:

وهي النوع الأول من البيئة التي تؤثر على حياة الإنسان، ثم الأموال والتجارة والمساكن وهي
النوع الثاني من البيئة التي تؤثر على حياة الإنسان.

ب- إيا، رسول إيا، الجهاد في سبيل إيا: وأول الخيارين هو عبارة عن البيئة التي يعيش فيها
الإنسان والتي قد تخالف الخيار الآخر في كثير من الأحيان وتأخذ منه كل كيانه، وأما ثاني
الخيارين فهو عبارة عن الإيمان، والذي عبرت عنه الآية الكريمة بالحب، لأنّه وكما تقدم
فإن حقيقة الإيمان هي الحب القلبي. كما يعبر القرآن عن هذه القدرة لأن يخرج المؤمن من
بيئة كافرة بقوله: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) (يونس/ 31)، وقد ورد في الرواية المفسرة لهذه الآية عن الإمام أبي عبد الله
الصادق (ع): "الحي المؤمن الذي يخرج طينته من طينة الكافر، والميت الذي يخرج هو من
الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن والميت الكافر، وذلك قول إيا
عز وجل: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأُحْيِيَ بِنُحَاهُ) (الأنعام/ 122)، فكان موته اختلاط
طينته مع طينة الكافر، وكان حياته حين فرق إيا عز وجل بينهما بكلمته، كذلك يخرج إيا
عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور، ويخرج الكافر من النور
إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور"[4]. - المرأة على دين زوجها: ورد النهي في الروايات
عن تزويج أصحاب الشكوك والانحراف ففي رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) قال: "تزوجوا
في الشك ولا تزوجوهم لأن المرأة تأخذ من دين زوجها ويقهرها على دينه"[5]. وهذا من
الأمر التي نهى عنها الشارع لأجل وقاية المرأة من الضلال والانحراف، ولكن ذلك لا يكون حجة
لها لتبرير انحرافها أو ضلالها، فهذه قصة امرأة فرعون تشكل نموذجاً واضحاً على أن
المرأة المؤمنة تخرج عن طاعة زوجها حيث يكون في ذلك معصية إيا عز وجل، فإنّه لا طاعة
لمخلوق في معصية الخالق، ولذا أفتى الفقهاء بأنّه ليس على المرأة طاعة زوجها إذا منعها
من فعل ما يكون واجباً عليها كالحج، بل لو أطاعته وعصت إيا عز وجل فإنّها سوف تحاسب

على ذلك. - خلاصة الدرس. 1- إنَّ حقيقة الإيمان هي ذلك الذي يعتقده الإنسان بقلبه، لا مجرد ما يقتنع به أو يراه صحيحاً. ومن يريد أن يصل إلى الإيمان الراسخ والثابت فإن عليه أن يرقى بإيمانه إلى درجة حب الله ورسوله. 2- إنَّ المؤمن الحقيقي هو الذي يختار ما عند الله على كل ما يكون عنده في هذه الدنيا، لأن ما عند الله باق وما في هذه الدنيا مصيره إلى الزوال والفناء. 3- البيئة الفاسدة وغير المؤمنة لا تبرر لمن ينشأ فيها البقاء على الضلال، كما أنَّها لا تشكل عذراً مقبولاً له عند الله في عدم التزامه بأحكامه. الهوامش: [1]- الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص70. [2]- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص252. [3]- العلامة المجلسي بحار الأنوار، ج69، ص40. [4]- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج64، ص88.

[5]- الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص348.

المصدر: كتاب قصص القرآن الكريم (سلسلة الدروس الثقافية 20)